حرف الخاء

* * *

١٣٥ - الخياط الزرهونى.

حالـه: ولد بمدشر العـامة من جـبل زرهون، ثم رحل لفاس فـقرأ الـقرآن بالروايات العـشر وأتقن حفظهـا، وقرأ الخـزرجية والقلصـادى والمنية، ومـهر فى الحسـاب والفرائض والتاريخ وأيام الناس وسـياسة الملوك، ثـم اتخذ مكتبـا لتعليم الصبـيان بحومة زقاق الحـجر من مدينة فـاس، ثم رشحه جارى الحومـة المذكورة لمباشرة زمـام ما يقبضه من اللوازم، ثم صـار يباشر زمامات سـائر المكلفين بقبض الأداءات البلدية بسـائر حومـات فـاس، وعددها إذ ذاك أربعـة وعشـرون حومـة وبجميع حسابات ذلك.

فقربه واصطفـاه إليه عامل فاس إذ ذاك من قبل السلطان سيـدنا الجد مولانا إسمـاعيل وهو أبو على الروسى، فولاه على الجـميع حتى لم يبق لأحد مـعه فى تلك الجهـة من الأمر شىء، حـتى صار يضرب المغـارم على من يستـمع للوعاظ والقصـاص بمسجد القـرويين، ويوقع القبض على من لم يؤد مـا وظف عليه من المغرم، فترك الناس لذلك الإتيان للمسجد والاستماع للوراقين.

ثم لما أراد الله أفول طالع ظلمـه، وإراحة المسلمين من بغيـه، اتفق أن قدم لفاس اسى المـؤذن مسامـر مولانا الجـد السلطان مولانا إسـماعيل لزيارة ابـنته فى مرض أصـابها، فدخل لمسجـد القرويين بقصـد سماع كتـاب الحلية من القلص، فوجد المسـجد فارغا لا يسمع من الوعاظ إلا النزر الـقليل من الناس، فبحث عن السبب فأخبر بفعل المترجم فأسرها فى نفسه.

ولما رجع لمكناس وجلس مع الـسلطان على عادتـه سأله عن أحـوال الناس

وعن الأسعـار والرخاء وتأمين البلاد والطـرق وعمارة المساجـد وقراءة العلم وأهل الدين والخيـر وسيرة عمـاله فيهم، فأخـبره عن ذلك، إلى أن بلغ لخبـر القرويين فأخبره بفعل الخياط المذكور مترجما فيها.

فـاغتـاظ لذلك الفعل الـسيئ الشنيع وأصـدر أمـره حالا لعـامله أبى على الروسى مضمنه: وليتك أمر المسلمين لتنظر إليهم بعين الشفقة والرحمة وتسعى فى المصالح فإذا بك أطلقت عليهم فى كل حومة سـفيها ابن زنا يأكل لحومهم ويمص دماءهم ومن سلمه الله منه يتبعه للمسـجد الأعظم ويقبض عليه فيه ويسجنه، فإن كان هذا فى علمك فسترى إن شاء الله منى ما تكره، وإن لم يكن عن إذنك فعلى بهؤلاء، فإن تركت منهم أحدا فإنك مكانه وكلكم راع والكل مـسئول عن رعيته. فقـبض القائد المذكـور على جميـعهم امـتثالا للأمـر العالى وجـعل لهم الأغلال والسلاسل إلا المترجم تفلت واستـجار بحرم مولانا إدريس رضى الله عنه، فكلف العسس بالقبض عليه عـندما يخرج لقضاء حاجة الإنسـان، فقبض عليه بالكنف، وفتحوا فى أحد جدرانه نقبا أخرجـوه منه فغل وقيد ولحق بإخوانه، وسار بالجميع العامل المذكـور، فلما مثلوا بـين يديه أمر بضرب أعناقـهم ردعا لأمثـالهم وإراحة للمسلمين منهم، وضـمت أموالهم لبيت مال المسلمـين، وأمر السلطان العامل أبا على بأن لا يزيد على جـاريين أحدهما على اللمطيـين والآخر على الأندلسـيين، وأمـر السلطان أن لا يعطى للجـارى سـوى مـوزونتـين، ولجارى الحـبس سـوى موزونة، ولعـون الشرع سوى نصف مـوزونة، فمن زاد على ذلك ضـربت عنقه، وبسبب ذلك اطمأنت البلاد والعباد، وانطفأت نيران ذوى الجور والفساد.

وفاته: قتل بمكناس صبرا عام خمسة أو أربعة وعشرين ومائة وألف.

١٣٦- الخياط الخياطى من عقب الولى الصالح سيدى عبد الله الخياط، دفين جبل زرهون.

حاله: من أهل الخير والصلاح والعناية والنجـاح. والرعاية والفلاح. مشار إليه بالولاية والفضل، متبرك به معتقد أظهر الله على يده كرامات وخوارق عادات.

الآخذون عنه: منهـم أبو حفص الشريف سـيدى عمـر بن أحمـد العراقى المتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف.

وفاته: توفى أوائل القرن الثالث عشر بفاس، ودفن بإزاء سيدى عبد السلام التواتى بمقابلة من درب أهل تادلا.

١٣٧- خناثة بنت الشيخ الأكـبر الأشهر بكار بن على بن عبـد الله المغافرى السـيدة المبـاركـة زوج سيـدنا الجـد الأعظم مـولانا إسمـاعـيل سلطان المغرب.

حالها: فقيهة عالمة أدبية دينة من أصرح العرب نسبا وأجلهم حسبا وأعرقهم مجدا وفخرا، وأعـزهم جانبا، وأرفعهم قدرا من صميم قـبائل المغافرة، وهم من ظهر حسـان من عرب اليمن وأصل اليمـانية من قحطان على ما تقـرر عند علماء الأنساب النقاد.

قال فى حقها الشيخ محمد بن على بن فضل الحسينى الشافعى الطبرى إمام المقام الإبراهيمى ما لفظه: ثمرة الشيوخ المعتبرين المنتخبين من أكرم سلالة. وأفلاذ أكبـاد العلماء المتغـذين بلبان الجلالة. مـغارس طابت فى ربى المجـد فألقت على الخلف معدن السودد وكيمياء السعـادة. وعنصر الحمد ومفرق السيادة. الملكة خناثة بنت المرحوم المـبرور الشيخ بكار المغـفرى زوجـة المرحوم المقدس مـولانا السلطان

---

١٣٧ - من مصادر ترجمتها: نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٦/ ١١٥٥.

إسماعيل أعلى الله مقامه فى الجنان ورفع لهذه الملكة أعلام السيادة على مر الزمان.

وقال أبو عبد الله الوزير الشرقى الإسحاقى فى رحلته التى ألفها بمناسبة سفره إلى الحج فى معية صاحبة الترجمة ما نصه: فما نعلم واحدة من الحرائر التى دخلت دار الخلافة من أزواج مولانا السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله تشبه هذه السيدة ولا تدانيها همة وصيانة، وعفافا ورزانة، وحصانة عقل ومتانة دين، فهى من المسلمات المؤمنات القانتات المستجمعات للأوصاف التى أعد الله لهن عليها مغفرة وأجرا عظيما.

وكان لها كلام ورأى وتدبير مع مولانا أمير المؤمنين رحمه الله ومشاورة فى بعض أمور الرعية، وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير، تأمره بالخير وتحرضه عليه وتتوسط فى حوائج الناس ويقصد بابها أهل الحياء والحشمة وذوو الحاجات وكانت فى ذلك ركنا من الأركان جزاها الله بالخير.

رحلت إلى الحج وزيارة خير الأنام مع حفيدها سيدى محمد بن عبد الله وكان خروجها من دار الخلافة بمكناسة الزيتون بعد صلاة الجمعة الحادية عشرة جمادى الثانية عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف، وهى السنة الرابعة من إمارة ولدها السلطان مولاى عبد الله، وقد بلغ عدد ما زودها به ولدها المذكور من الدراهم بقصد التوسعة على أهل الحرمين الشريفين مائة ألف دينار كما قاله حفيدها العلامة الثبت أبو محمد عبد السلام بن محمد بن عبد الله فى مؤلفه، درة السلوك وريحانة العلماء والملوك.

وكان خروجها للحج فى أُبهة من أبهات الملك كبيرة. وأسباب من أسبابه أثيرة. وكان مبيتها على الربوة المشرفة على وادى ويسلين حيث ضربت لها هنالك القباب الملونة، التى جللت الأرض وملأت الأعين منظرا وبهاء وكثرة أمتعة

كتاب السيدة خناثة بنت بكار لأهل وجدة وعليه طابعها

وأكـداش ودواب وعبـيد وخـدم وطواشـية، وهم الـذين يلون القبـاب ونصـبهـا ومباشرتها والحاشية أهل الحرس من وراء ذلك على بعد، ومن الغد نهضت نهوض يمن وإجلال وواصلت المسيـر إلى أن خيمت على ضفة وادى النجـا فباتت هنالك والعناية تقدمها. والرعاية تخدمها.

ومن الغد حلت بـدار الملك من فاس، وذلك قرب الظهـر فأقـامت بها فى انتظار اجتماع وفد الحاج، وفى يوم الخميـس خامس عشرى جمادى الثانية بارحت فاسا على أحسن حال. وأجمل احتفال.

وكان مخـيمها بولجـة العسال على عدوة وادى سـبو من العدوة الشـرقية، جرت العادة بنزول ركب الحجاج بها يوم انفصاله عن فاس، وأقامت به يوم الجمعة لانتظار اجتماع بقية الركب.

وفى عشية الجمعة نفسها خرج ولد صاحبة الترجمة السلطان مولانا عبد الله فى أعيان جيشـه وذوى الحيثيات من وجهاء دولته لوداعـها، وبعد أدائه ما يناسب من مناسك البرور رجـع لحضرته الفـاسية، وكـان شيخ الركب إذ ذاك الحاج عـبد الخالق عديل، وعند إسفار يوم السبت أقلع الركب مرتحلا والمترجمة فى مقدمته مع خاصتها وحاشـيتها وواصلوا السير يومهم إلى أن خيموا عـشيته بضفة وادى اناون من بلاد الحـيـاينة بالمحل المعـد لنزول الركب كل سنة المعـروف بسـبت بوجـابر، وهنالك تلقتهم قواد القبيلة المذكورة بكل حـفاوة وإجلال، وقاموا بواجب الضيافة كما يلزم أتم قيام، فباتوا فى اطمئنان وأمان، ومن الغد ارتحلوا وواصلوا السير إلى أن وصلوا المحل المعروف بالملاعب، فخيموا به وضربت قـباب صاحبة الترجمة مع حفيديها على عقبة بنى فكاره.

ومن الغد خيمـوا بتازا وكان وصولهم إليها وقت الزوال وأقـاموا بها يومين كـاملين ثم ارتحلوا ثانى رجب وعـبـروا وادى بوالاجـراف ومـروا بالبلد المسـمى

بالفحامة، واتصل مسيرهم إلى أن وصلوا وادى القطف فنزلوا به، ثم وادى ملوية، ثم تافراطه من قبيلة الأحلاف، ثم فم بزور، ثم المريجات، ثم وادى الشارف، ثم المنقوب، ثم أبيار السلطان، ثم بوالدروس، ثم جنان لصطم وهو شجرات مجتمعات كهيئة الجنان وليست به، ثم بالغفر عن يمين حبل عنتر، ثم بوهاد الظهرا، ثم أصبحوا بعين الحسينى فأقاموا بها يومهم حتى استقى الناس ما يكفيهم من الماء لمرحلتين.

ثم ارتحلوا وباتوا قرب القصيعات، ثم نزلوا بعين الحجر ثم المشرية آخر منازل الظهرا، ثم النخيل، ثم الأمشط الأحمر، ثم عين ماضى، ثم الحميضة، ثم على مقربة من عبد المجيد، ثم التوميات، ثم سيدى خالد، ثم أسفل الغيث، ثم بأطراف الزاب ملجأ ملوك بنى زيان ومعتصمهم حين يضايقهم بنو مرين عن دار مملكتهم تلمسان، ثم بسكرة بظاهر البلد وأقاموا بها يومين، ثم وادى الناموس، ثم غمران، ثم توز، ثم الحامه، ثم قابس ومنها الجرف المقابل لجزيرة جربة، ثم حمادة بن قردمان، ثم شوشة، ثم الزوارات الغربية، ثم زواغة، ثم قردادش، ثم طرابلس.

قال الوزير الشرقى الإسحاقى فى رحلته: لما حلوا بطرابلس خرج ولد صاحب البلد وحاكمه أحمد باشا فى لمة من أصحابه مع أهل البلد رجالا ونساء حفاة فى الطريق، وعلى السطوح مظهرين الفرح والسرور بولد سيدنا نصره الله وأمه وبوفد الحجاج، وأخرج مدافع كبارا سلاما على ولد السلطان نصره الله على عادة أهل البحر فى التسليم والتوديع بالمدافع.

واحتفل ولد سيدنا نصره الله سيدى محمد أصلحه الله للدخول لهذا البلد فيمن معه من الوصفان عبيد البخارى نفع الله به فتناولوا من لباسهم ومراكبهم وحسن زيهم ما كانوا أعدوه لذلك، ولعبوا بالبارود لعبا قضى منه الترك وغيرهم العجب، واعترفوا بأنهم لا قدرة لهم على ذلك اللعب ولا معهم من الفروسية ما يقاوم ذلك.

وأهل البلاد المشرقيـة كلهم يتعجبون من زى مخـزن سلاطين المغرب مولانا إسماعيل وولده هذا مولاى عبد الله نصره الله وأدام وجوده، فقد تقرر عندهم من فروسيته وشهامته وحزمه وعزمه وضبطه وجوده ما أوجب تعظيمه فى نفوسهم كل التعظيم، ويقول منهم من علم من يشابه أباه فما ظلم، واحتفل الباشا بضيافة ولد السلطان مع أمه غاية الاحتفال، فما تركوا شيئا قدروا عليه إلا وقدموه وداموا على ذلك مدة إقامتهم بطرابلس وكذلك فعلوا حال الأوبة.

قال: فقد قام بالحـقوق. قيام الحر لا المرقوق. وقد قامت المتـرجمة بمكافأته على حسن صنيعه بأضعاف مضاعفة مما يستغرب وجوده فى تلك الديار من الطرف والتـحف الملوكيـة، ولم تقصـر فى إسـداء الخيـر وأنواع التبـرعات التى أوجـبت استلفـات الأنظار إليهـا فى تلك الفلوات سيـان فى ذلك الغنى والفقـير. والجليل والحقير. تقبل الله منها أعمالها. وأنالها من الخير آمالها هـ. بعضه باللفظ وبعضه بالمعنى.

ثم قال: خرجنا من طـرابلس يوم السبت الثامن من شهـر رمضان من السنة ونزلنا بقرية تاجورى، ثم من تاجورى للمسـيل، ثم النقيرة، ثم لبدة، ثم الدفينة، ثم مصراته حيث مدفن أبى العبـاس أحمد زروق، ثم بوشعيب، ثم سرت، وهى كما قال البكرى فى مسالكه[1]: مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخيل وبساتين وفيها يقول:

يا سـرت لا سـرّت بك الأنفس ... لسـان مـدحى فـيكم أخـرس

ألبـسـتم القـبح فـلا مـنظر ... يـروق منـكم لا ولا مـلبـس[2]

(١) المسالك والممالك للبكرى ٢/ ٦٥١ - ٦٥٢.

(٢) فى المطبـوع: «منكم ولا ملبس» وهو غيـر صحيح عـروضيـا، والتصويب مـن المسالك والأبيات من بحر السريع.

بخـــســـتم فى كل أكـــرومـــة وفى الخنا واللوم لم تبـخسـوا[1]

ومن سرت هذه لشـرف حسان، ثم التنعـيم، ثم وادى مسعـود، ثم مقطع الكبريت فوغبة، فبرقة المدينة الأزلية المسماة قديما أنطابلس - أى خمس مدن كما للبكرى، ثم من برقة للزجيحـيفية، فكلود، فالنخيلى، فالتمـيمى، فعين الغزالة، فالنبـعة، فالدفنة فظهـرة عزيز، فمطعن مـقرة، ثم أبى المطامر، ثم الأخـصاص، فأنْبَابة[2] وهى مدينة على ساحل النيل فى الجانب الغربى ثم مصر القاهرة.

وكان دخـولهم مصر يوم الخمـيس التاسع عشر من شـوال عامه ولم يبيـتوا بمصر بل خيـموا بالمحل المعروف بالبركـة - بالراء المرققة - على عشـرة أميال من مصر يجتمع فيه الركب المصرى، ومن بركة للدار الحمراء، ثم عجرود، ثم رءوس النواظر، ثم وادى التيه المحل الذى تاه فيه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر، ثم النخيل، فبـئر الزعالك، فسطح العقبة عـقبة أيلة القرية التى كانت حـاضرة البحر وهى معدودة من كور مصر.

قال العبدرى: وقـد ذكرها القاضى عياض فى مشارقه وغلط فـيها، فحكى عن أبى عبيـدة أنها مدينة على شاطئ البحـر من بلاد الشام، وهى نصف الطريق من فسطاط مـصر إلى مكة هـ، ثم ظهـر الحمـار ثم شراجة ابن عطيـة، فمـعابر شعيب، فعيون القصب، فالبندر، فبيار السلطان، فالأزلام، فالإصطبل، ثم وادى لكره، فالحوراء، فالنبط، فالينبوع.

وبه قدم على السيدة المباركة صاحبة الترجمة الشرفاء أهل الينبع لأداء مراسم التهنئة والتحيـة بسلامة القدوم، فأكرمت وفادتهم وأحسنت إليـهم كعادتها المألوفة

(١) المسالك والممالك للبكرى - ص ٦٥١ - ٦٥٢.

(٢) فى المطبوع: «فالنبابة» تحريف.

وبالأخص مع الأشراف آل البيت المصطفى، وأهدت لهم كساوى من أرفع طرز، وأدت لهم مائتى مثقال ذهبا مطبوعة كانت توجه لهم أيام زوجها السلطان الأعظم مولانا إسماعيل، ومائة مثقال ذهبا منحة من عندها شطرها للشرفاء والشطر الآخر للشريفات.

ثم من الينبع، لبدر، فبروة القاع، فرابغ، فقديد - سميت قديد لتقدد السيول بها - ومن قديد لعسفان، فوادى فاطمة.

ومن الغد نهضت المترجمة قبل الركب وواصلت السير إلى أن أناخت بذى طوى وصلت به المغرب واغتسلت وتهيأت لدخول مكة شرفها الله تعالى وعظمها، ودخلتها عشاء وذلك ليلة السابع من ذى الحجة الحرام، دخول جلالة ووقار فى محفل من الأجناد، وطافت طواف القدوم وبعد أيام التشريق نفرت إلى مكة وأتت بعمرتها.

وكانت مدة إقامتها بمكة تنزل كل يوم فى جنح الظلام. وتطوف بالبيت الحرام. وتبذل بغير حصر. وتعطى عطاء من لا يخشى الفقر. ودخلت جوف الكعبة. وأفاضت فى سدنتها ما علا للمغرب كعبه. وخلدت بمكة المشرفة ذكرا جميلا. وبذلت عطاء جزيلا.

وأوقفت أوقافا ذات بال منها دار اشترتها من أولاد العلامة أبى محمد عبد الله بن سالم البصرى بباب العمرة أحد أبواب المسجد الحرام بما يقرب من ألف مثقال ذهب مطبوعة وحبستها على طلبة يختمون كل يوم ختمة من القرآن، وعلى من يدرس صحيح أبى عبد الله البخارى وعينت ناظرا على الدار المذكورة.

وبعد أن قضت من الحرم المكى وطرها، وأدت من المناسك سنتها وفرضها، تاقت نفسها لطيبة الطيبة، وزيارة قبر خير العالمين فنهضت والسعادة تحرسها وعيون

الحفظ ترمقها، وكان خروجها من مكة المشرفة زادها الله شرفا ورفعة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى الحجة والمبيت بوادى فاطمة، ومن الغد ارتحل الركب ووجهته المدينة المنورة على الطريق التى جاء عليها دارًا دارًا إلى بدر ومنه أخذ طريق الصفراء.

فكان المبيت بالموضع المسمى بالجديدة، فقبور الشهداء، فبير على، فوادى العقيق، فمهد الفضائل المشهورة ومقعد ألوية الدين المنشورة، مدينة المظهر الأعلى، والبرزخ الأسنى، مشرق الأنوار، ومعدن الأسرار، من له الفتح والختام، الحائز للمقامات العلية بالتمام، رسول رب العالمين، وسيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ تسليما كثيرا وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكان مقامها بالمدينة ثلاثة أيام بدار مفتى الشافعية بها أبى الفخرزين العابدين المنوفى، وبعد بلوغها الوطر من تلك البقاع الطاهرة عجلت الأوبة لدار مملكتها والكل لحسن الصنيع شاكر، ولها فى كل حين ذاكر.

بعض ما قيل فيها من الأمداح: من ذلك قول أبى عبد الله محمد بن على الحسينى الشافعى الطبرى إمام المقام الخليلى:

غنى على عود السعود هزارى ... وشدا على الأوتار بالأوطار

والأنس طاب لنا بأوقات الهنا ... بسلامة الحجاج والزوار

لا سيما بسلامة الست التى ... حظيت ببيت الله والأستار

فلها المنى بوصال من قد جاورت ... والأكرمون يرون حق الجار

فاحت بها أرجاء مكة رغبة ... ومحبة من سائر الأدوار

وهى الحقيقة بالجلالة فى الورى ... فجلالة الأضياف ليس بعار

والله قـــد ألقى عليـهـــا دائمـا حـسن القبـول كسـيمـة الأخيـار
وهى الحليـمة والكريمـة ما لهـا فى الجـود ثان مـثل غـيث جـار
ولهـا كـمـال وافـــر فى عـفـة ولهـا حـــيـاء فـاق فـى المقـدار
فـالله يحـملهـا بحـسن رعـاية مـنـه إلـى مكـنـاس بـالأوطـار
ويحـفـهـا بـسـعـادة وسـيـادة من كل ســـوء مـــاضى أوطارى
وعلى الـنبى وآله وصـــحـــابه صلى وسلـم ذو الجـلال البـــارى
ما غردت ورق الريـاض بدوحها وترنمت فـى سـائر الأســحـــار

وفاتها: توفيت رحمة الله علينا وعليهـا بفاس فى جمادى الأولى عام تسعة وخمسين ومائة وألف، ودفنت بروضة الأشراف من المدينة البيضاء فاس الجديد.

١٣٨- خليل بن صالح الخالدى.

قاضى مكناسة الحشـمى، نسبة إلى الحشم إحدى قبـائل عرب تلماس، نشأ بتلمسان ثم استوطن فاسا.

حاله: كان فقيها نحويا آية فى صناعة التدريس، وبالأخص ألفية ابن مالك، ذا تؤدة لا يتزحزح ولا يتحرك حالة إلقائه الدروس، فصيح اللسان، حلو العبارة، يحصل ما ألقاه فى درسـه تحصيلا عجيبـا، مجلسه بالقرويين حفيل يحـضره نجباء أعيان طلبة وقته.

تولى نيابة القضاء بمقـصورة القرويين عن قاضيها العلامة المشـاور السيد عبد الله بن خضراء السلوى، ووقعت له رحـمه الله فى مدة نيابته نوادر عجيـبة يسخر

---

١٣٨ - من مصادر ترجمته: إتحاف المطالع فى موسوعة أعلام المغرب ٨/ ٢٨٥٣.

منها صـغار الولدان ومن له أدنى مـسكة من الفقه، من ذلـك أن رجلا طلب منه الإذن فى إقامة بينـة على بغلة له وجدها بيد الغيـر فقام فيهـا بالاستحقـاق، فأمر أعوانه بجعل البغلة فى محل خاص ويغلق عليها بحيث لا يراها الشهود لئلا يستند بعضهم على بعض فى وصفها ونعتها، والحال أن عوام الأعوان فضلا عن الوكلاء يعلمون أن شهادة الاستحقاق لا تكون إلا على عين الشيء المستحق.

ومنها أنه ادعى لديه رجل على أخيه بأنه تقاعد له على حقوق انجرت له من ميـراث أبيه، فطلب وكـيل المدعى عليه من المدعى إثبـات موت أبيه وعـدة ورثته فحكم بإلغاء طلبه وعـدم قبوله شرعا، وألزمه الجواب من غير مـهلة أو عزل نفسه عن الدعوى.

ومنها أن ورثة هالك قاموا بغبن فى دار اشتـراها موروثهم استوفت صورتها شروط القيام بالغـين، وأدلوا بفتوى شيخنا أبى العباس ابـن المأمون البلغيثى أطال الله بقاءه تؤيد مدعاهم، ووافق على فتواه عالمان جليلان، فلما أدلوا لديه بالفتاوى المذكورة حكم بإلغـاء أولى الفتاوى التى هى الأصل معللا لإلـغائها بأن صاحـبها سافر للاتجـار بالشام، وقبول الفتويين المعـضدتين لها، وقد هجاه شـيخنا المذكور بعدة قطع وقصائد من ذلك قوله:

وذى سفه قد خـلا قلبه وقلبه من كل شيء على

تسمى خليلا بدون علوم وليس خليلا ولكن خلى

ثم رشح لقضاء الحضرة المكناسية وزرهون وما انضم لذلك بعد وفاة قاضيها أبى العـباس ابن سـودة المرى المترجم فـيمـا سلف، وذلك عام واحـد وعشـرين وثلاثمائة وألف، ولما حل بمكنـاس، لبست نحوياته حلة التناس، حـتى حفظ عنه

فى خطبه اللحن الصراح من ذلك جزمه للمضارع المقرون بحرف التنفيس من قول سيدنا عمر بن عبد العزيز الوارد فى الصحيح فإن أعش فسأبينها ونبا عنه أنه لا يصلح أن يكون شرطا ولذلك وجب قرنه بالفاء لما وقع جوابا، اللهم إلا أن يجاب عنه بأنه سكنه تخفيفا على حد قراءة إن الله يأمركم بالجزم.

وقد حكى عنه بعض أهل العدل من شيوخنا أنه كان يوما بمجلسه فمر بجنازة فسأل من هى؟ فقيل له: امرأة نفساء، فقال: وهل ينعت المفرد بالجمع؟ فقيل له: أين الجمع؟ فقال: نفساء، فقيل له: نفساء ليس بجمع وإنما هو مفرد وأنشد له المسئول على سبيل التمثيل قول البوصيرى.

من لحواء إنها حملت أحمد أو إنها به نفساء

فقال ضرورة، فقيل له: وعلى أنه جمع فما المفرد؟ فقال: نفيسة فسكت المسئول وقال فى نفسه الآن آن لأبى حنيفة أن يمد رجليه.

ثم ختمت أعماله فى مكناسة بنكبة شنعاء وذلك يوم خلع السلطان المولى عبد العزيز ومبايعة أخيه السلطان المولى عبد الحفيظ وحشد الناس لذلك بالمسجد الأعظم وتم الأمر فيما حشدوا إليه على ما سنشرحه بعد بحول الله، قام بعض من لا خلاق له من الأوباش بإغراء ممن فى قلبه مرض وأعلن بسب المترجم، فقامت ضجة عظيمة فى المسجد وكان قصد موقد نار تلك الفتنة الفتك بصاحب الترجمة، فقمت فى وجه أولئك وعززنى من حضر ثم من أبناء عمى العلويين وفر الله جمعهم، وعضدنا عامل البلد حيث قلت له: إن لم تحسم هذه المادة حسما كليا فلا ريب أن هذه النار تجر ذيلها عليك وعلى كل موظف ووجيه حالا، ويتسع الخرق على الراتق، وتكون العاقبة وخيمة.

فأصغى لى بأذن واعية ووقع منه مقالى كل الموقع وقام لإطفاء تلك النار

بنفسه وأعوانه، وأدخلنا القاضى لمقصورة الخطيب وكلفنا به من يحرسه إلى أن يصل لداره فى حفظ وأمان.

ولما حيل بين أولئك الرعاع وبين ما يشتهون هجموا على بيت كان لولد القاضى المترجم بمدرسة العدول ودخلوه عنوة، ونهبوا ما فيه مما لست أذكره ولا أتيقن حقيقة ذلك، والذى يغلب على الظن أن ذلك مختلق.

ومن ذلك الحين لزم المترجم بيته ولم يخرج إلا يوم سفره لفاس، والذى تصدر للفصل بين الخصوم مكانه هو شيخنا ابن عبد السلام الطاهرى، ولم يزل على ذلك حتى أقر على الخطة واستقل بها حيث أعانه على ذلك قوم آخرون.

مشيخته: أخذ عن حامل لواء التحقيق فى النحو المشار له فيه بالبنان بين معاصريه الفقيه الخطيب السيد محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن التاودى بن سودة المرى المدعو الجلود، وعمن هو فى طبقته من محققى معاصريه.

الآخذون عنه: كثير منهم شيخنا الفقيه سيدى محمد النميشى، ومنهم الفقيه مولاى الشريف التاكناوتى، والفقيه السيد عبد الرفيع الإِيرارى، وأخوه الفقيه السيد محمد ومن فى طبقة هؤلاء من النجباء المحققين.

مؤلفاته: وقفت له على رحلة منظومة نظما ساقط الوزن غير مرتبط لمعنى وقافية، وختمه للألفية، ومقامة فى قصة الفيل المهدى لسلطان المغرب مولانا الحسن من الدولة البريطانية عام تسعة وثلاثمائة وألف، فى نحو كراسة.

نثره: من ذلك قوله فى فصل من مقامته المشار لها يصف الفيل:

ذو جسم جسيم، وشكل وسيم، ظريف بهى، نبيل شهى، من أعظم الحيوانات وأبهر المصنوعات، منظره بديع، وهيكله رفيع، طويل الخرطوم، واسع الحلقوم، مبسوط الأذنين، حديد العينين، طويل الأنياب، أسنانه تبلغ ثلاثمائة سن

فى الاستيعاب، كأنه طود علاه سحاب، يحسبه الناظر إليه ربوة تمشى على ساق، أو سحابة أظلمت الآفاق، يهرول فى مشيته، ويسارع فى خطوته، كثيف فى المرأى، خفيف فى الوطأى، لو فاجأ عنترة وسليكا، لعجزا عن الإقدام وهلكا، ليس فى سيره انزعاج ولا اضطراب، تحسبه جامدا وهو يمر مر السحاب، تفزع منه الطيور، وتتقى صدمته النسور، وخرطومه يتقلب تقلب الأفعى، يتلفف به الملتقم حين يدعى، ويسير به إلى الجهات الست، ويقلع به الصخور والأشجار قطع البت، ظهره عريض بسيط، وصوته رقيق غطيط، غليظ الجثة المرتقبة، قصير الجيد منقبض الرقبة، وعيناه كإكسير زحل، إذ لم يمتز فيهما بياض من كحل، وقوائمه الأربع ويداه ورجلاه أجمع، كأجسام نخل باسقة، أو سوارى متناسقة، يخاله من لا يعرفه عند رؤيته، أن الأرض انقلبت بهرولته، أو زلزلت زلزالها، أو أن الله بذلك أوحى لها، أبصر من هدهد، وأسمع من قنفد.

وفاته: توفى بفاس صبيحة يوم الاثنين التاسع عشر من ذى القعدة الحرام عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف، ودفن قرب ضريح سيدى أبى بكر بن العربى المعافرى خارج باب الشريعة المعروف بباب محروق.

* * *